ضحايا الحب

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن والاه، وبعد:

فيظن بعض الناس أن أصحاب الشريعة وأبناء الملة لا يعرفون الحب، ولا يقدرونه حق قدره، ولا يدرون ما هو، والحقيقة أن هذا وهم وجهل، بل الحب العامر أنشودة عذبة في أفواه الصادقين، وقصيدة جميلة في ديوان المحبين، لكنه حب شريف عفيف، كتبه الصالحون بدموعهم، وسطره الأبرار بدمائهم، فأصبحت أسماؤهم في سجل الخلود معالم للفداء والتضحية والبسالة. وقصدت من هذه الرسالة الوقوف مع القارئ على جوانبَ مشرقةٍ، وأطلالٍ موحشة في مسيرة الحب الطويلة، التي بدأها الإنسان في حياة الكبد والنكد، ليسمو إلى حياة الجمال والجلال والكمال، وسوف يمر بك ذكرٌ لضحايا الحب وقتلاه، وستعرف المقصود مما أردت إذا قرأت، وتعلم ما نويت إذا طالعت.

والله وحده نسأل أن يجعلنا من أحبابه ، والشهداء في سبيله.

عائض القرني

الحــب

الحب ماء الحياة، وغذاء الروح، وقوت النفس.

تعكف الناقــة على حــوارها بالحب، ويرضع الطفل ثدي أمــه بالحب، وتبني الحُمّرة عشها بالحب، بالحب تشرق الوجوه، وتبتسم الشفاه، وتتألق العيون. الحب قاضٍ في محكمة الدنيا، يحكم للأحباب ولو جار، ويفصل في القضايا لمصلحة المحبين ولو ظلم، بالحب وحده تقع جماجم المحاربين على الأرض كأنها الدنانير؛ لأنهم أحبوا مبدأهم، وتسيل نفوسهم على شفرات السيوف؛ لأنهم أحبوا رسالتهم، أحب الصحابة المنهج وصاحبه، والرسالة وحاملها، والوحي ومنزله، فتقطعوا على رؤوس الرماح طلباً للرضا في بدر، وأحد، وحنين، وهجروا الطعام، والشراب، والشهوات في هواجر مكة، والمدينة، وتجافوا عن المضاجع في ثلث الليل الغابر، وأنفقوا النفائس طلباً لمرضاة الحبيب.

بالحب صاح حرام بن ملحان مقتولاً: فزت ورب الكعبة!، بالحب نادى عمير بن الحمام إلى الجنة مستعجلاً: إنها لحياة طويلة إذا بقيت حتى آكل هذه التمرات!، بالحب صرخ عبد الله بن عمرو الأنصاري: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى!. لما أحب الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ صارت له النار برداً وسلاماً، ولما أحب الكليم موسى ـ عليه السلام ـ انفلق له البحر، ولما أحب خاتمهم حنَّ له الجذع، وانشق له القمر.

المحب عذابه عذبٌ، واستشهاده شهدٌ لأنه محب.

أحـــــــبك لا تســـــــأل لماذا لأنـني

أحـــــــبك هـذا الحب رأيـي ومـــــــذهبـي

بالحب يثور النائم من لحافه الدافئ، وفراشه الوثير لصلاة الفجر، بالحب يتقدم المبارز إلى الموت مستثقلاً الحياة، بالحب تدمع العين، ويحزن القلب، ولا يقال

إلا ما يرضي الرب، الحب كالكهرباء في التيار يلمس الأسلاك فإذا النور، ويصل الأجسام فإذا الدفء، ويباشر المادة فإذا الإشعاع، الحب كالجاذبية به يتحرك الفلك، وتتصاحب الكواكب، وتتآلف المجموعة الشمسية، فلا يقع بينها خصام ولا قتال، بالحب تتآخى الشموس في المجرة، فلا صدام هناك، ويوم ينتهي الحب يقع الهجر والقطيعة في العالم، وسوء الظن والريبة في الأنفس، والانقباض والعبوس في الوجوه، يوم ينتهي الحب لا يفهم الطالب كلام معلمه العربي المبين، ولا تذعن المرأة لزوجها ولو سألها شربة ماء، ولا يحنو الأب على ابنه ولو كان في شدق الأسد، يوم ينتهي الحب تهجر النحلة الزهر، والعصفور الروض، والحمام الغدير، يوم ينتهي الحب تقوم الحروب، ويشتعل القتال، وتدمر القلاع، وتدك الحصون، وتذهب الأنفس والأموال، ويوم ينتهي الحب تصبح الدنيا قاعاً صفصفاً، والوثائق صحفاً فارغة، والبراهين أساطير، والمثل ترهات!. لا حياة إلا بحب، لا عيش إلا بحب، لا بقاء إلا بحب، إذا أحببت شممت عطر الزهر، ولمست لين الحرير، وذقت حلاوة العسل، ووجدت برد العافية، وحصَّلت أشرف العلوم، وعرفت أسرار الأشياء.

وإذا كرهت صارت كل كلمة عندك جارحة، وكل تصرف مشبوهاً، وكل حركة مشكوكاً فيها، وكل إحسان إساءة. المحب هجره وصال، وغضبه رضا، وخطيئته إحسان، وخطؤه صواب.

ويقبح من سواك الفعل عندي

وتفعله فيحسن منك ذاكا!

الحب حبان: حب أرضي طيني سفلي إنما هو هيام وغرام، وحب علوي سماوي إلهي، وهو طاعة وعبادة وشهادة وسيادة.

فحب الأرض للعيون السود والخدود والقدود، ووادي الغضا، وأهل البان، وذكريات سلمى، وأيام ليلى.

وحب الإله تعلق بشرعه، وانقياد لأمره، وامتثال لدينه، وتقرب منه.

حب الطين آهات وزفرات وحسرات وندامات.

وحب رب العالمين علو ورفعة وكرامة وسلامة وسعادة وريادة، كيف لا تحب الله وما من نعمة عليك إلا هو منعمها، ولا بليةٍ إلا هو الذي صرفها؟! هو المحسن وحده ـ جل في علاه ـ؛ فقضاؤه عدل، وشرعه رحمة، وخلقه جميل، وصنعه حكيم، وفضله واسع، ووصفه حسن، فلا عيب في شيء من صفاته، بل الكمال كله فيها، ولا نقص في تدبيره، بل الحكمة أجمعها فيه، ولا خلل في صنعه، بل الحسن أوله وآخره فيه، فحبه واجب، والتقرب منه فريضة، وشكره حتم، وطاعته لازمة.

أما حب سواه فمنافع متبادلة، وأهواء مشتركة، وأغراض مادية، يشوبه الخلل والزلل والإسراف وعدم الاستقرار، مع ما يعقبه من أسف وندامة وحسرة.

ولا أحد في الكون يسكن له العبد، ويتوكل عليه إلا الواحد الأحد، ولذلك سمى نفسه (الله)؛ قيل هو الذي تأْله النفوس إليه؛ أي تحبه وتسكن إليه جل في علاه.

الحب للرحمن جل جلاله

هو مستحق الحب والأشواقِ

فاصرفه للملك الجليل ولُذْ به

من كل ما تخشاه من إرهاقِ

ما الحب؟

لا أعلم كلمة في قاموس العربية تعبر عن الحب مثل كلمة (الحب)، فليس هناك أصدق من (الحاء والباء) في دلالتهما على هذا المقصود العظيم، فالحاء تفتح الفم فيبقى فارغاً حتى تأتي الباء فيُضم الفم وتُطبق الشفتان، إذاً هنا اجتماع بعد فرقة ووصل بعد هجر!.

وكلمة (حب) كلمة عامرة، لها أنداء وأفياء وظلال وأبعاد، وهي كلمة مؤنسة مشجية منعشة مشوقة، بل هي معجبة مطربة مغربة، لكنها ذائعة شائعة، غير أنها خفيفة لطيفة شريفة؛ لأنها باسمة مبهجة مشرقة، عليها طلاوة، ولها حلاوة وفيها نضارة.

كلمة (حب) عالم من المودة والصلة والأنس والرضى والراحة، وهي دنيا من الأمل والفأل الحسن، والأمس الجميل، واليوم الحافل، والغد الواعد.

إنها رحلة في عالم التآلف والتآخي، والتفاهم والتكاتف، والتضامن والتعاون، في كلمة (حب) بسمة وضمة ولهفة واشتياق ولوعة!.

إذا قلت: (حب) تداعت الذكريات القديمة، وثارت المعاني الجميلة، وحضرت المواقف المشجية، واستعادت النفس شبابها، والقلب أمله، والروح إشراقها، والمجلس بهجته، والحضور أنسه.

إذا قلت: (حب) سافرت بك قافلة الذكرى إلى صور ومشاهد لا تمحى من ذاكرة الزمن، فعرضت لك الطفل يضم الثدي، والناقة تحنو على الفصيل، والآكام تلف الثمار، والأغصان تعانق الجذوع، والفراشة تلثم الزهرة، والعش يكتنف الطائر، فما أحسن كلمة (حب) وما أبدعها وما أروعها.

الحب حرفانِ حاء بعدها باءُ

تذوب عند معانيها الأحباءُ!

إذا قلت: (حب) هلَّ غيث الرجاء، وهبَّت ريح الصفاء، وسرى نسيم الوفاء، وتهللت أسارير الوجوه، وانبلجت معالم الطلعات، وأشرقت شموس الأيام، إذا قلت: (حب) امتلأت الجوانح بالأشواق، والحشايا بالتلهف، والضمائر بصور الأحباب، ومعاهد الأصحاب، ومغاني الأتراب.

إذا قلت: (حب) تساقطت أوراق البغضاء، وتلاشت نزغات الشر، وارتحلت قطعان الضغينة، وفرَّت زمر الأحقاد، وغربت نجوم العداوات.

كلمة (حب) سماء شمسها اللقاء، وقمرها العناق، ونجومها الذكريات، وسحبها الدموع. كلمة (حب) إشراقة من عالم الملكوت، وإطلالة من ديوان الخلود، ووقفة في بساط العظمة. من استظل بسمائها اتقد شوقه وتدافع خاطره.

وأما تعريف (الحب) فخذه نظماً ولا تخش ظلماً ولا هضما:

الحب بسمة عاشق لو أنها

سفرت لغار البدر من إطلالها!

وقيل:

الحب أكبادنا تُشوى وأعيننا

تُكوى، وأعمارنا تُطوى على الأملِ

وقيل:

إذا قلت هذا الحب بعدٌ ولوعة

وفرقة أصحاب وهجر أقاربِ

فما الحب إلا الأنس والقرب والرضى

فدعني فهذا الحكم بعد التجاربِ

وقيل:

الحب كالسحر إلا أن رقيته

شهادة لا يذوق الموت لاقيها!

وقيل:

الحب ليس رواية شرقية

بأريجها يتزوج الأبطالُ

لكنه الإبحار دون سفينةٍ

ومرادنا أن الوصول محالُ

وقيل:

لعلك يا محب ظننت ظناً

بأن الحب جمعٌ وافتراقُ

أجل هو جمع أوصالٍ تداعت

وفرقة مهجة، ودمٌ يُراقُ!

وقيل: الحب قصة طويلة فصولها الشهداء.

وقيل: الحب سر لا يعرفه المحبون.

وقيل: الحب ليس له تعريف إلا الحب.

أسئلة في الحب

السؤال الأول:

سألت إمام الحي عن حكم عاشقٍ

إذا ازداد حباً صار من شوقه صَبَّا

أيجزئه ذكرٌ وردُّ تحيةٍ

وشهقة شوقٍ كالنسيم إذا هبَّا؟!

فقال: عليه النحر يوم لقائه

بمحبوبه حتى يزيل به الذنبا!

السؤال الثاني:

سألنا أبا حمدان عن حكم صاحبٍ

أحب فأهدى الروح خلاً بلا ثمنْ

أيحرم هذا البيع والشرط باطلٌ

أليس يقال المرء حقاً إذا غُبِنْ

فقال: معاذ الله بل صح بيعه

وهذا الذي نفتي به سائر الزمنْ!

السؤال الثالث:

سألت حماد عن صبٍّ جرى دمه

من أجل أحبابه ماذا نقول له؟

فـــقـــال: قـــولوا لـه يـفـدي بمهـجـــتـــهِ

إمـــا ســـواه عـلـى عـــمـــد نقـــول لَهـــوا

المتنبي مفتيا:

يقول أبو الطيب:

قـــفي واغـــرمي الأولى من اللحظ مـــهـــجـــتي

بـثـــانيـــةٍ والمتلف الشيء غـــارمُـــه

صحوة من سُكار الحب

ومن المحبين من هجر الحب المحرم واتصل بالحب الشرعي الطاهر العفيف، فانتقل من عالم الزور، ودنيا الهيام، وظلام الغرام، ومقام الآثام، إلى جنة الصدق، وروضة المعرفة، وبستان اليقين، وباحة الإيمان: فهذا ابن أبي مرثد هام ـ قبل أن يسلم ـ بفتاة وعشقها وسكب عمره في كأس هواها، وأفرغ روحه في كوب نجواها، وفرّغ شبابه على تراب مغناها، فلما هداه الله وغسل قلبه من أدران الهوان وأوصار المعصية، أفاق ـ والله ـ من رقدة الغفلة، ومن سنة الجهالة، ومن سكرة الغي، على صوت بلال، فارتجف جسمه، وتهذبت روحه، وأعلن في إباء، وصاح في استعلاء: أتوب إليك يا رب، وأقبل على المصحف، وهب إلى المسجد، واستعان بالصبر والصلاة، وأدمن الذكر، وسجل رائعته في ديوان الخلود وسفر النجاة ودفتر المجد:

أأبقى غـــــوياً فـي الـضـــــلالـة ســـــادراً

كـــــفى المرء بـالإســـــلام والـشـــــيب ناهيـــــا

وهذا لبيد بن ربيعة الشاعر المشهور، هام بالغزل ومات بالمقل، وانغمس في الشعر وحده، يعيش للقافية، ويضحي للقصيدة، ولكنه عرف الله عن طريق الصادق الأمينﷺ، فتاب من حياة العبث والضياع، ورجع إلى المحراب، وأقبل على التلاوة، وأنشد:

الحـــــــــمـــد لـلـه إذ لـم يـــأتـنـي أجـلـي

حـــتى اكـــتـــســـيتُ من الإســـلام ســـربالا

ونذر لله لا ينظم ولو بيتاً واحداً، فإن فعل أعتق رقبة، وقال: كفتني سورة البقرة عن الشعر.

وهذا إبراهيم بن أدهم عاشق الملك، وهاوي الإمارة، والمولود في الرئاسة، فكَّر ذات يوم فقال: كان أجدادي وآبائي ملوكاً فأين هم الآن؟ هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً؟!، وتذكَّر قول الشاعر:

وســــــــــــلاطـيـنـهـم سَـلِ الـطـينَ عـنـهـم

والـرؤوس الـعـظـام صـــــــارت عـظـامـــــــا!

فأعلن توبته، وفر من قصره، وخلع ثياب الملك، وهرب من الترف والجاه والنعيم إلى قرة العيون وراحة الأرواح، فكان يسكن الخراب، ويمرِّغ أنفه بالتراب، ويأكل الشعير، وينام على الرصيف، ويقول: نحن في عيش لو علم به الملوك لقاتلونا عليه بالسيوف:

أمـطـري لـؤلـؤاً ســـــــــمـــاء ســرنـديـب

وفـــــــيـضـي آبـار تـكـريـت تِـبْـــــــرا

أنـا إن عـــــشـتُ لـسـتُ أعـــــدم خـــــبـزاً

وإذا مـت لـسـتُ أعـــدم قـــــــبـــــــرا!

وهذا عمر بن عبد العزيز ابن النعمة والحشمة، وارث الدور والقصور، أرغد الناس في شبابه عيشاً، وأكثرهم ترفاً، وأزكاهم عطراً، لكن نفسه تاقت إلى الجنة فزهد في الفاني، ورغب في الباقي، وأقبل على الله تعالى، وصدق مع ربه فعدل في الرعية، وأخلص في العبودية، وقاد الأمة الإسلامية خير قيادة، مع ورع متين، وعلم راسخ، وخشوع صادق:

جـــــــزاك ربـي عـن الإســـــــلام مـكـرمـــــــة

وزادك الـلـه مـن أفـــــضـــــالـه كـــــرمـــــا

برقيات إلى الأحبة

الحب على المحبين فرض، وبه قامت السماوات والأرض، من لم يدخل جنة الحب، لن ينال القرب، بالحب عُبد الرب، وتُرك الذنب، وهان الخطب واحتُمل الكرب، عقل بلا حب لا يفكر، وعين بلا حب لا تبصر، وسماء بلا حب لا تمطر، وروض بلا حب لا يزهر، وسفينة بلا حب لا تبحر.

بالحب تتآلف المجرة، **وبالحب** تدوم المسرة، **بالحب** ترتسم على الثغر البسمة، وتنطلق من الفجر النسمة، وتشدو الطيور بالنغمة، أرض بلا حب صحراء، وحديقة بلا حب جرداء، ومقلة بلا حب عمياء، وأذن بلا حب صماء!

الحب هو بساط القربى بين الأحباب، وهو سياج المودة بين الأصحاب:

شكا ألمَ الفراق الناس قبلي

ورُوِّع بالنوى حيٌّ ومَيْتُ

وأما مثلُ ما ضمتْ ضلوعي

فإني ما سمعتُ ولا رأيتُ!!

بالحب ترضع الأم وليدها، وتروم الناقة وحيدها، **بالحب** يقع الوفاق، **وبالحب** يعم السلام، والمودّة والوئام.

بالحب يفهم الطلاب كلام المعلم، **وبالحب** يسير الجيش وراء القائد ويتقدم، **وبالحب** تذعن الرعيّة، ويعمل بالأحكام الشرعية، وتصان الحرمات، وتقدس القربات.

بيت لا يقوم على الحب مهدوم، جيش لا يحمل الحب مهزوم، لكن أعظم الحب وأجلّه ما جاءت به الملّة، أجمل كلمة في الحب قول الرب: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. فلا تطلب حباً دونه.

ليس حـــبـــاً قطعـــةٌ مـــعـــزوفـةٌ

مـن يـراع الـشـــاعـــر المنتـــحـــبِ

مـــا (قِـــفَـــا نـبـكـي) هـو الحب ولا

ظـبـــيـــة الـبـان وذكـــرى زيـنـــبِ

إنمـا الحـب دمٌ تـنـــزفـــه

فـي ســـبـــيـل الله خـــيـــر القـــربِ

أو دمـــوعٌ ثـرَّةٌ تـبـــعـــثـــهـا

سَـــحَـــراً أصـــدق مـن قلب الصـــبـي

أو ســـجـــودٌ خـــاشـعٌ تـرســـمـــه

فـــوق خـــدٍّ الطين فـــاســـجـــد واقـربِ

أحبَّ امرؤ القيس فتاة، وأحب أبو جهل العزى ومناة، وأحب قارون الذهب، وأحب الرئاسة أبو لهب، فأفلسوا جميعاً!؛ لأنهم أخطؤوا خطأ شنيعاً. أما حب بلال بن رباح فهو البر والصلاح؛ سُحب على الرمضاء، فنادى رب الأرض والسماء، وانبعثت من قلبه (أحدٌ أحد)، لأن في القلب إيماناً كجبل أُحد.

إذا كـــان حب الـهـــائـمـين مـن الـورى

بـلـيـلـى وسـلـمـى يـسـلـب الـلـبَّ والـعـــقـــلا

فـــمـــاذا عـــسـى أن يـصـنـع الـهـــائـم الذي

ســـرى قـلـبـــه شـــوقـــاً إلى الـعـــالـم الأعلى؟!

الحب لا يعترف بالألوان ولا بالأوطان، والدليل بلال وسلمان؛ بلال أبيض القلب أسود البشرة، فصار بالحب مع البررة، وأبو لهب بالبغض ليس من أهل البيت، وسلمان نال بالحب جائزة: (سلمان منا أهل البيت!).

دعني من حب مجنون ليلى، ومحبوب سلمى، ومعشوق عفرا، فلطالما لطخت بأشعارهم الطروس، وضاقت بأخبارهم النفوس، وخدعت بقصائدهم الأجيال واتبعهم الضلال، وحدثني عن أنباء الأنبياء، وهم من أجْلِ حب الرب يهجرون الآباء والأبناء؛ فإبراهيم يتبرأ من أبيه، ونوح من بنيه، وامرأة فرعون تلغي بنفسها عقد النكاح؛ لأن البقاء مع الكافر سفاح.

هذا هو عالم الحب بتضحياته، بأفراحه وأتراحه، وهو حب يصلك برضوان من رضاه مطلب، وعفوه مكسب.

والله ما نظرت عيني لغيركم

يا واهب الحبِّ والأشواقِ والمهجِ

كل الذين رووا في الحب ملحمة

في آخر الصف أو في أسفل الدرجِ!

امرؤ القيس يصيح في نجد وقد غلبه الوجد، (قفا نبكِ)، فإذا بكاؤه على الأطلال، وإذا دموعه تسفح على الرمال، إنه هيام العقل بلا وازع، وحيرة الإنسان بلا رادع، ورسولنا ﷺ يذوق الويلات، ويعيش النكبات، ثم ينادي مولاه في مناجاة وإخبات، ويقول: «**لك العتبى حتى ترضى**»!.

لا تُضِعْ عمري بشعر طرفة بن العبد وهو يشكو الحب والصد، حب ماذا يا هذا؟!.. أما علمت أن أحد الأنصار، كان يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بتكرار، فسئل عن المقصود، قال: لأن فيها مدح المعبود، وأنا أحب تلك البنود، فدخل الجنة بالمحبة، لأن الله أحبه..

دعني أمسح فوق الروض أجفاني

فالنار موقدة من حر أشجاني

نســـــيت في حـــــبكم أهـلي ومنـتـــــجـــــعي

فـــــحـــــبكم عن جـــــمـــــيع النـاس ألـهـــــاني!

شغلونا بالروايات الشرقية والمسرحيات الغربية، ويل هذا الجيل ويله!.. سهر مع غـرامـيـات ألف ليلة وليلة، وفي الذكر المنـزل والحـديث المبـجل قـصص الحب الصادقة، والمعاني الناطقة، ما يخلب اللب، ويستميل القلب.

أخرجونا يا قوم من ظلمات عشق الأعراب، والهيام في الأهداب، فكل ما فوق التـراب تـراب، وأدخلونا في عـالـم الحب الـراقي، والـدواء الواقي، الـذي تطيـر له الأرواح، وتهتز له الأشباح، في ملكوت الخلود، وعلى بساط رب الوجود.

بـكـت عـــــيـنـي غـــــداة الـبـين دمـــــعـا

وأخـــــــرى بـالـبـكـا بـخـلـت عـلـيـنـــا

فـــــعـــــاقـــــبت الـتـي بـالـدمـع ضـنـَّـت

بـأن أغـــمـــضـــتُـــهـــا يوم الـتـــقـــيـنـا

دع حب هؤلاء فـإنهم مـرضى، وتعـال إلـى الواحـد وناد: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً ﴾.

فـي حـــالـة الـبـــعـــد نـفـــسـي كنت أرسلهـــا

تُـقـــــبِّـل الأرض عـنـي وهـي نـائـبـــــتـي

وهـذه دولـة الأشـــبـــاح قـــد حـــضـرت

فـــامـــدد يمينك كي تحظى بهـــا شـــفـــتي

حمـزة سيد الشهداء يمزق بالحب تمزيقاً، وأنتم تهيمون بروايات غراميّة لفقت تلفيقاً، نقول حدثونا عن الحب عند ابن عباس، فتذكرون لنا عشق أبي نُوَاس! كفى جفاء، فأما الزبد فيذهب جُفاء!!

حب طلحة والزبير أعظم من حب شكسبير؛ لأن حبهم سُطِّر في (بدر) لمرضاة القوي العزيز، وحب شكسبير كتب في شوارع لندن لمراهقي الإنجليز.

إن كنت يا شاعر الغرب كتبت رواية الحب بالحبر، فالصحابة سجلوا قصص المحبة بدم الصبر.

ومن عجب أني أحن إليهم

فأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها

ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

لا تدري ربما عُذِّبت بحبك، وكُتب عنك عند ربك (هذا فراق بيني وبينك)! ونحن نسمع من أجل امرأة بكاءك وأنينك.

ولما جعلت الحب خدناً وصاحباً

تركت الهوى والعشق ينتحبانِ

فلا تُسمعَنِّي (شكسبير) ولهوه

ورنةَ عودٍ أو غناءَ غواني

فلي في رحاب الله ملكٌ ودولة

أظن الضحى والليل قد حسداني!

كلما خرج علينا شاعر مخمور، فاقد الشعور، حفظنا شعره في الصدور، وكتبناه في السطور، وقلنا: يا عالم هذه قصصنا الغرامية، ونسينا رسائلنا الإسلامية، وفتوحاتنا السماوية، التي أذهلت الإنسانية.

علمني الحب من سورة الرحمن، ولا تكدر خاطري بهيام (يا ظبية البان)، أنا ما أحب لغة العيون، ولكن أحب لغة القلوب، ولا أتبع فلتات أبي نواس والمجنون، ولكني أرتع في رياض الكتاب المكنون ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾.

ومعنفي في الحب قلت له: اتئد

فالدمع دمعي والعيون عيوني

الحب الصادق في جامعة (**إن المسلمين والمسلمات**)، والغرام الرخيص في مسرح الفنانين والفنّانات. استعرض نصوص الحب في وثيقة الوحي المقدس، لترى فيها حياة الأنفس، فالحب السماوي يدعو العبد إلى حياة مستقيمة، ليجد فضل الله ونعيمه، أما الحب الأرضي فإنه يقتل الإنسان ويجعله بلا قيمة.

أرق على أرقٍ ومثلي يأرقُ

وجوىً يزيد وعبرة تترقرقُ

جهد الصبابة أن تكون كما أرى

عينا مسهدةً وقلباً يخفقُ

حب العز عند فرعون، وحب الكنز عند قارون، أما حب الجنة، فعند أبطال السُّنة، الذين حصلوا على أعظم منّة. الجعد بن درهم ذُبح على الابتداع، وأنت تبخل بدمعة في محراب الاتباع.

أتريد من الجيل أن يحب الملك العلام، ويصلي خلف الإمام، ويحافظ على تكبيرة الإحرام، وأنت تُحفِّظه رباعيات الخيام، ليبلّغهم رسالة لا بعث ولا نشور؟ أعوذ بالله من تلك القشور!.. يا حاج..! أين حملة المنهاج، أما ترى كيف عشق الإمارة الحجاج، وقتل في البدعة الحلاج؟ وأنت من أحرص الناس على حياة، فبماذا تدخل الجنة يا أخاه؟!

مَنْ تُدَاجي يا إبراهيم ناجي، ومن تكلم ومن تناجي؟ تقول: يا فؤادي رحم الله الهوى، بل قتل الله الهوى!.. من يشارك في ثورة الخبز، لا يحضر معركة العز، لما نسيت الأمة حب القلوب، واشتغلت بحب البطون، رضيت بالدون، وعاشت في هون.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

هل عند الأمة فراغ في الأزمان، تسمع صوت الحرمان، وهو ينادي:

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا

وبكاك إذ لم يجر دمعك أو جرى

نحن بحاجة إلى صوت خبيب بن عدي وهو يلقي قصيدة الفداء، على خشبة الفناء، في إصرار وإباء، وصبر ومضاء:

ولست أُبالي حين أقتل مسلماً

على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أشلاء شلوٍ ممزَّعِ

بارك الله فيك وفي أشلائك يا خبيب، فأنت إلى قلوبنا حبيب ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾، اللهم اجعلنا ممن يحبك ويحب من يحبك، ليؤنسنا قربك، اللهم ازرع شجرة حبك في قلوبنا، لنرى النور في دروبنا، وننجو من ذنوبنا، ونطهر من عيوبنا.

أحبك حبّاً ليس فيه غضاضة

وبعض مودات الرجال سرابُ

وأمحضتك الحب الصحيح وفي الحشا

لودك نقشٌ ظاهر وكتابُ

إذا صح منك الود فالكل هينٌ

وكل الذي فوق التراب ترابُ

وإن تعجب فعجب أن ترى شاعراً بائساً، يشكو طللاً دارساً، فهو يبكي من نار الغرام، ويشكو ألم الهيام، ولو سافرت روحه في عالم الملكوت، لصار حبه عنده كالقوت. ولو أدرك عنترة الإسلام ما كبا، وما قال: اذكري يا عبل أيام الصبِّا.

جرير يشكو العيون السود، وبشار يشكو الصدود، والشريف الرضي يشكو فتنة الخدود، وكأن الحياة لديهم اختصرت في امرأة حسناء، وكأن العمر يتسع لهذا الهراء، ويحسبون أن الناس من أجلهم تركوا المنام، وهجروا الطعام!.. إذا افتخرنا على الغرب بأن لدينا نساء حسناوات، وفتيات فاتنات، قالوا لنا: عندنا في ذلك مسارح ومسرحيات، ومغامرات وغراميّات، لكن فخرنا على الناس أن لدينا رسالة ملأت الكون نوراً، والعالم حبوراً، والدنيا طهوراً.

نحن الذين ملأنا جونا كرماً

وقد بعثنا على قرآننا أمما

والعالم الآخر المشبوه في ظلم

من يعبد الجنس أو من يعبد الصنما

قتيلان لا يستويان

ذكر أهل السير أن سيداً باع جاريةً له وكان له غلام يحبها حباً شديداً، فلما ذهب البائع بالجارية رمى الغلام بنفسه من على سطح بيت عالٍ فوقع ميتاً! وقد قال بعض هؤلاء:

والله لو قطعوا رأسي لأتركها

لمال نحو هواها في الهوى رأسي!

قارن بين ما سبق وما رواه ابن حبان، والغزالي في (الإحياء) في كتاب السماع من أن غلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه: من خلق السماء؟ قالت: الله عز وجل، قال فمن خلق الأرض؟ قالت: الله عز وجل، قال: فمن خلق الجبال؟ قالت: الله عز وجل، قال: فمن خلق السحاب؟ قالت: الله عز وجل، قال: إن هذا الرب عظيم، ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع، وإنا وإن كنا لا نقر هذا العمل، لكن انظر كم هو الفرق بين من جعل حياته فداء لجارية ومن ضحى بروحه من أجل ربه.

ذبت فداها

أما عاشق آخر فيخبرنا بإلحاح ويعلن للملأ أنه قد امتلأ غراماً وعشقاً حتى النخاع، يقول:

أخبروها إذا أتيتم حماها

أنني ذبت في الغرام فداها

فإذا أخبرناها أنه ذاب في الغرام فداها فماذا سوف يحدث؟! أمن أجل سواد عينيها يذهب حياته هدراً ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؟!.. ولكن تعال إلى شاعر بغداد وهو يمدح الحي القيوم ـ جل في علاه ـ ببيتين من أعذب الشعر يقول:

إليك وإلا لا تشد الركائبُ

ومنك وإلا فالمؤمِّلُ خائبُ

وفيك وإلا فالغرام مضيعٌ

وعنك وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ

أحسنت لا فُضَّ فوك!.. وهكذا فليكن الإبداع واللموع والتفوق، وأما شاعر صنعاء فيشاركه في الثناء على الله ولكن مع الاعتذار من التقصير يقول:

سبحان من لو سجدنا بالجباه على

حرارة الجمر والمحمي من الإبرِ

لم نبلغ العشر من مقدار نعمته

ولا العشير ولا عشراً من العشرِ

العيون التي في طرفها حَوَرٌ

للموت ألف طريقة، فمنهم من يموت ساجداً لربه، ومنهم من يموت بحد السيف في سبيل الله، ومنهم من يموت تخمة من كثرة ما أكل، ومنهم من شرب عصيراً فشرق فمات، ومنهم من ضاع له مائة دينار فمات غبناً، ومنهم من بشر بجائزة فمات فرحاً، وأما جرير فيخبرنا لنكون على بينة بسبب موته وأمثاله فيقول:

إن العيون التي في طرفها حورٌ

قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا

يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به

وهن أضعف خلق الله إنسانا!

ياله من قتل غير جميل، ومن موت غير شريف، ومن وفاة رخيصة، ولكن اسمع إلى بطل مجاهد صنديد شهيد وهويقول:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجدْ

لنفسي حياةً مثل أن أتقدما

فليس على الأعقابِ تدمى كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما!

شكراً لهذه النفوس الحية والأرواح الخالدة، ما أجلها وأشرفها يوم عرفت كيف تموت ميتة شريفة بالذبح في سبيل الله، لا ميتةً رخيصة من أجل العيون السود!

وقد قال الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله يوم أحد:

اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى!

جزاك الله خيراً يا طلحة على هذا الحب الصادق، وهنيئاً لك ذلك المصير المبارك.

وهذا شاعر يشاركه هذه الأمنية الغالية فيقول:

لا تمتني يا رب إلا بسيفٍ

صارم الحد مصلت في سبيلكْ

فيقتل شهيداً في سبيل الله لا في سبيل العيون السود!

ابن عباس يتصدق بعينيه

وهذا ابن عباس ترجمان القرآن وبحر الأمة وحبرها، يبكي من خشية الله حتى تذهب عيناه فيعزيه أحد الشامتين فينشد ابن عباس:

إن يأخذ الله من عيني نورهما
ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكي وعقلي غير ذي عوجٍ
وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهورُ

وفي الحديث القدسي "من ابتليته بحبيبتيه (أي بعينيه) فصبر، عوضته منهما الجنة"!.. وهذا سعيد بن المسيب إمام التابعين أبكاه الحب الصادق حتى ذهبت عينُه لمرضاة ربه، وكذلك يزيد بن هارون المحدث المشهور فإنه عمي من كثرة البكاء، فقيل له: أين العينان الجميلتان؟ قال أذهبهما ـ والله ـ بكاء الأسحار!

أما أحد الشعراء فقد بكى على محبوبته حتى ذهبت منه عيناه فقال:

أعيناي كفا عن فؤادي فإنه
من الظلم سعي اثنين في قتل واحدِ
لقد عميت عيناي من كثرة البكا
لفرقة حبٍ أو لتذكار فاقدِ

ويشاركه المتنبي هذا البكاء فيقول:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري
فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

فابن عباس ذهب بصره لمرضاة الله فثوابه الجنة، وهؤلاء ذهبت أبصارهم لفلانة فثوابهم الإفلاس والندم والحسرة.

يا لهف نفسي على ملل!

وخرج شاعر من المدينة وراء قافلة وهو يبكي فسُئل عن ذلك؟ قال معهم جارية أخذت قلبي وذهبت!، فكان كلما نزلوا منزلاً سأل عنها، فإذا ارتحلوا ارتحل معهم وأخذ ينشد:

وقالوا صحيرات اليمام وقدموا

ركائبهم من آخر الليل في الثقلْ

وردن على ماء العشيرة والهوى

على ملل يا لهف نفسي على مَلَلْ!

لكن جعفر الطيار ابن عم المختار، يخرج مسرعاً إلى مؤتة لترفع روحه هناك ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، فيتقدم ويقاتل ليضحي بنفسه فداء لدينه ويلقى المنية باسما وهو ينشد:

يا حبذا الجنةُ واقترابها

طيبةٌ وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها

كافرةٌ بعيدة أنسابها

عليَّ إن لاقيتها ضرابها

فتقطع يداه وتطير روحه إلى الجنة ويبدله الله بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

جعل المناسك أرض محبوبته

وهذا محب مفتون غلب عليه العشق والغرام والتولّه بمحبوبته حتى رفض الخروج إلى مكة لأداء الحج وقال معتذراً

حجي إلى الباب القديم، وكعبتي
الباب الجديد، وبالمصلى الموقفُ
والله لو علم الحجيج وقوفنا
في زندروز عشية ما وقَّفوا
أو شاهدوا جسر الحسين وشعبه
بين المحصَّب والنقا ما عرّفوا

أما علي بن الحسين زين العابدين فإنه لما حج أراد أن يلبي؟ فارتعدت فرائصه وارتعش جسمه واحمر لونه فقيل له: مالك؟ قال: أخشى إن قلت: لبيك اللهم لبيك أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك!.

وهذا من خشيته وعظيم تقواه وقوة ورعه وخوفه من ربه، وعند الحاكم في المستدرك أن الرسول ﷺ لما استلم الحجر الأسود بكى بكاء شديداً، ثم التفت فرأى عمر فقال: هنا تسكب العبرات يا عمر!.

وأي جهاد غيرهن أريد؟!

دُعِيَ جميل بثينة للجهاد في سبيل الله ليكون كفارة له علَّ الله أن يرزقه شهادة ينال بها رضوان الله، فاعتذر وهو يقول:

يقـــولون جـــاهد يا جـــمـــيل بغـــزوة

وأي جـــــهـــادٍ غـــــيـــــرهـن أريـد!

وفي الحديث : «**ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

ولكن الطرماح بن حكيم الشاعر المجاهد الصادق يدعو ربه أن يرزقه الشهادة ويقول:

أيارب لا تجـــــــعل وفـــــاتيَ إن أتت

على شرجعٍ يعلو بحسن المطارفِ ولكن شهيداً ثاوياً

فـي عـــــــــــصـــــــــابـة

يـصـــــابون فـي فـجٍّ مـن الأرض خـــــائـفِ

فجميل يرى أن أعظم الجهاد حب النساء، والطرماح يرى أن أعظم من ذلك رضوان رب الأرض والسماء!.. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.

ألا بـلـغ الـلـه الحـــــــمى مَـنْ يـريـده

وبـلـغ أطـراف الحـــــــمى مَـنْ يـريـدهـا

في القلب لا في الرأس

ويزعجنا إيليا أبو ماضي بصياحه ونحيبه وعويله وصراخه وهو ينادي:

يا من لقلب كلما ضممته

ملأ الجراح مواجعي وحواسي

لو أنه في الرأس كنت ضممته

لكنه في القلب لا في الرأس

وما الجرح؟.. أظنه جرح الهوى والغي الذي شرحه في طلاسمه [جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت]!..

محب يتوب

يا أخي بلغني أنك تبت، وإلى ربك أنبت، فسرني والله ذلك سرورَ من وجد المفقود وبشر بالمولود؛ لأننا كنا نفقدك في صفوف الطائعين، والآن وجدتَ، وكنا نسأل عنك في موكب الضالين، والآن وفدت، فأهلاً بك يا من أشرقت لتوبته الأفراح وتجددت، فوالله لو كتبنا برموش العين على صحائف الخدود تحية لقدومك لما أنصفنا، ولو رسمنا بنياط القلوب على سويدائها ثناءنا عليك لما بالغنا، أحبك الله فاجتباك وآثرك فاصطفاك، كنت عبده قبل التوبة مكرهاً مضطراً مغصوباً، وصرت اليوم عبده بعد التوبة قريباً مطيعاً محبوباً، يا أهلاً بمن فرح الله بتوبته، يا مرحباً بمن استبشرت الملائكة بعودته، يا سهلاً بمن تفتحت السماء لدعائه، يا حناناً لمن ذابت المهج لبكائه، يا قرة عين لمن أنصت عالم الغيب لندائه، سبحان من ابتلاك بالذنب ليكسرك كسرة فيها حسرة، ثم جبرك بالتوبة لتذوق لذة الأوبة ويغسل عنك أدران الحوبة، ركبت إلى الخطايا المطايا فأمهلك وما أهلكك براً وكرماً، ثم جذبك إليه بحبل التوفيق وأركبك سفينة النجاة في البحر العميق، تبارك من ألبسك تاج التوبة، وزينك بوشاح المحبة، وجملك برداء القبول، دمعك على ما مضى يُسال في ديوان الرضى، وتأسفك على ما فات منشورُ الحسناتِ وسلمُ الدرجات، كلما قلتَ من ذنبك آه، قيل لك: طبت يا (أواه) فقد قبلك الله، كلما صحت من خطاياك ونحت، نوديت نجوتَ وأفلتَّ، كلما ذرفت منك دمعة أوقدت لك في عليين شمعة، كلما ضج فؤادك شاكياً باكياً قيل لك: دمت طاهراً زاكياً، أدْمَت الخطيئة ـ قبلُ ـ أبيك آدم فنودي: يا آدم لو لم تكن التوبة أحب شيء إلينا ما ابتلينا بالذنب أعزَّ الناس علينا:

لعل عتبك محمود عواقبه

فربما صحَّت الأجسامُ بالعللِ

لما ترك الذنب زال عنه الكرب، وذهب عنه الخطب، ورضي عنه الرب: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾:

سـامـح الـدمـع إن أبـان جـوانـا

نـحـن لا نـكـتـم الـدمـوع الـغـزارا

بكى داود حتى بكت معه أحبابه، وتفجع حتى رق له أصحابه فنودي:

رجوعك إلينا أحب من إدلالك علينا، دمعة على مصابك أشرف من ألف ركعة مع إعجابك، فيا أيها التائب لو تدري بمدلول حديث: «**لله أفرح بتوبة عبده**» لهمت طرباً، ولتقطعت من الشوق إرباً إرباً، ولو علمت بتزيين الجنان لقدومك لجعلت أفراح أعيادك مكان همومك، ولو اطلعت فرأيت مقعدك في الفردوس الأعلى، والملائكة ينادون أهلاً وسهلاً، والحور يقلن وأغلى وأعلى! لذبت سروراً ولمئت حبوراً، ولصرت من البهجة مبهوراً، وفي ظلال الأنس مغموراً، أيها التائب أبشر بخير يوم طلعت عليك فيه الشمس، فأنت ابن اليوم لا غد ولا أمس، طاب ممشاك، وأفلح وجهك، وقرت عينك، وسرت روحك، وعلا قدرك، ورفع ذكرك، هنيئاً لك بنداء: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾، إذا وصلك الخطاب، وعرفت الجواب، ورفع لك الحجاب، فسبحان من جبر كسر من زل، ودمل جرح من ضل، وراش جناح من ذل، اقترفوا، وعلى الهلاك أشرفوا، فاعترفوا، فبشروا بـ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾، أخطؤوا، فأسفوا، وندموا على ما أسلفوا فوعدوا بـ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ للمعاصي في أول العمر أزلفوا، ثم عادوا إلى باب أرحم الراحمين ووقفوا فسمعوا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾.. يتقلب التائب في الليل الداجي يبكي ويناجي فيقال له: ما عليك اطّلعنا فسترنا، وعرفنا فعذرنا، وعلمنا فحلمنا، وقدرنا فغفرنا!.

قال التائب: يا رب أذنبت قال: وأنا غفرت، قال التائب: ذنوبي تجل عن الإحصاء، قال الرب: ولو بلغت عنان السماء، قال التائب: يا رب أهلكتني السيئات، قال الرب: إن الحسنات يذهبن السيئات، قال التائب: يا رب تسامحنا على ما فات

أَمَا تحاسبنا على تلك الزلات؟ فقال الرب: بل أبدِّل السيئات حسنات، قال التائب: لا أكرم منك أحد، قال الله أنا الصمد!..

جاء مذنب إلى عالم فقال: غرقت في الذنوب، فقال له: الآن أدركتك رحمة علام الغيوب، وقال أحد السلف: والله لو خيرت أن يحاسبني ربي أو يحاسبني أبي وأمي لاخترت حساب ربي لأنه أرحم الراحمين!.

أيها التائب أبشر فإن تذكرك لذنبك طاعة منك لربك، كلما احترق قلبك بنار الندم، ذابت جبال الخطايا واللمم، كلما أطار الهم نومك وكدَّر الحزن يومك غسلت سيئاتك ومحيت خطيئاتك، التائب حبيب الله وصديق عباده، وضيف رحمته، ووافد جنته، ومستحق كرامته، وحائر قربه، التائب يحبه المرسلون لأنه صدَّق قيلهم، واتبع سبيلهم، واقتفى دليلهم، والتائب تحبه الملائكة؛ لأنهم يستغفرون له، ويفرحون بطاعته، ويحبون توبته، والتائب يحبه المؤمنون؛ لأنه أعانهم على نفسه، وجاهد معهم شيطانه، وأرضى إلههم وإلهه، دمع التائب طاهر، لو وقعت منه قطرة على جليد الخطايا لذاب، ولو سقط على ركام المعاصي لغاب، دمع التائب على صدق صاحبه برهان، وعلى صحة توبته سلطان:

إذا اشـــــتـــــبكت دمـــــوع في خـــــدودٍ

تـبـين مـن بـكـى ممـن تـبـــــــــــاكـى

أيها التائب الآن عرفت فالزم، ووصلت فاسلم، وحصلت فاغنم، فتقدَّم ولا تحجم، الباب أمامك مفتوح، والعطاء من ربك ممنوح، والكرم منه يغدو ويروح:

والـلـه والـلـه مـــــــا أبـكـي عـلـى طـــلـلٍ

أقـــــفـى وأقـــــفـــــر من أهلٍ وسكـــانِ

ولا بكيت على واد الغـــضـــا ســـحـــراً

أو خـــيـــمـــةٍ بين روض الطلح والبـــانِ

ومـــا ذرفت دمـــوعي فـي الهـــوى ســـفـــهـــاً

لـفـيء خـلٍّ ولا تـذكـــــــار جـــيـــــــرانِ

لكـن لذكـــر ذنوبٍ لـيـــتـــهـا مُـــحـــيت

بـعـــفـــو ربٍّ وغـــفـــرانٍ وإحـــســـانِ

قل للمخطئين ومن في المعاصي تورطوا، لأنكم خلقتم من الطين أبشروا برحمة أرحم الراحمين، من الذي دعاه فما لباه؟ من الذي سأله فما أعطاه؟ من الذي استجار به فما حماه؟ من الذي استنجد به فما كفاه؟ من الذي أوى إليه فما آواه؟.. أيها التائب ارتكبتَ امرأة ذنباً، فأسقت كلباً، فأرضت رباً، وكشفت خطباً، وأزالت كرباً، قالوا في الأخبار وقديم الآثار: وقعت حمامة في ملامة فأكثرت الندامة، فبكت على الغصون بدمع هتون، وناحت في شجون وأنشدت:

ربـي إذا مـــا الـقـلـب أفـــحـم بـالـرضـــا

وبـكـى لـفـــرط ذنـوبـه وأتـاكـــــــا

هـل تـعـفُ عـنـه وهـل تـزيـل هـمـــــومـــه

إذ لا إلـه لـذي الـوجـــود ســـواكـــا

فهتف بها هاتف يقول: مَنْ عصانا أمهلناه، ومن تاب إلينا قبلناه، ومن أطاعنا قربناه.. يا أيها التائب أما ترى فيل أبرهة وجّهوه إلى البيت العتيق فأبى، وضربوه فبكى خجلاً من صاحب البيت!:

والـلـه لـو قـطـعـــــــوا رأسـي لأجـلـكـم

لـســـار نحـــو هـواكـم فـي الـهـــوى رأسـي

ولـو هـوت قـــدمـي ممشـىً لـغـــيـــركـم

لـقـلـت بِـيْـنِـي ومـا بـالـبَـــــيْـن مـن بـأسِ

نظر رجل في المرآة وهو في الأربعين وقد عصى رب العالمين، فرأى الشيب قد غطى عارضيه فصاح: أواه، واأسفاه، يا رباه!، ثم ذهب إلى عالم فقال له:

أمـــا تـرى الشـــيب في هـذا الســـواد شطـا

ونـحـن فـي لـيـل لـهـــــو نـركـب الـغـلـطـا

أراه يـنـهـــرنـي عـــــمـــا ألـم بـه

كـــأنما هـو ســـيف بالـهـــلاك سطـا؟!

فقال العالم: إن كان صبح الشباب عذرك، فإن غروب الشيب أنذرك، فتب إليه، واشكُ الحال عليه، فإذا لقيته يوم الدين، وقال لك: عبدي ما أغرك بي؟ فقل برُّك بي!.

بكى عمر بن عبد العزيز ثم قال: اللهم إنك قلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وأنا شيء فلتسعني رحمتك!. وخرج أحد العباد يصلي بالناس الاستسقاء وهو شيخ كبير، فكشف رأسه فإذا هو أبيض كالقطن، وقبض لحيته وبكى وقال:

ســـبـــحـــان من يعـــفـــو ونهـــفـــو دائمـــاً

ولم يزل مـــهـــمـــا هفـــا العـــبـــدُ عـــفـــا

يُـعـطـي الـذي يـخـطـي ولا يمـنـعـــــــه

جـــــــلالـه عـن الـعـطـى لـذي الخـطـا!

فنزل الغيث!.

براهين الحب

الأبطال يقدمون الرؤوس والنفوس لتلك المعالي والضروس، فيا عابد الدراهم والفلوس، عش في عبوس، ودم في نكوس.

قال نور الدين محمود: «اللهم احشرني في حواصل الطير وبطون السباع، فرزق الشهادة. وقال ابن الطرماح: اللهم لا تجعل وفاتي على سرير في الدار، ولكن اقتلني بسيف الكفار. وقال طلحة يوم أحد: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى. وقال عبد الله بن جحش: اللهم إنك تعلم أني أحبك.. وقال أعرابي رب أرسل عليّ في المعركة سهماً يقتلني.. وصح في الحديث: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»، وسأل ابن رواحة ربه أن يطعن في سبيله طعنة تصل الكبد!..

ياليت أنك قد حضرت نزالنا

ورأيت كيف تقطع الأعناقُ

كأس المنايا بيننا نحسو به

حب المهيمن كله تريقُ

صارت كأغماد السيوف صدورنا

والرمح في أحشائنا خفَّاقُ

متضرجين دماً فلو أبصرتنا

أنساك ما قد أنشد العشَّاقُ

طعن الإمام المحدث النابلسي بالخنجر في سبيل الله، فكلما طعن طعنة قال: الله الله الله!، فمات وهو يقول الله الله!.. قال أهل السير نزف دمه، فكتب على الأرض الله الله الله، فالله أعلم، والعهدة على الرواة:

إذا قـــــتلوا صـــــحت بحـق دمـــــاهـــم

وكـــــان قـــــديماً مـن منـاياهـم الـقـــــتلُ

تـدوس الخـــــيـــــول الصـــــافنات رؤوســـــهـم

غـــــريبـــــون لامـــــال لـديهـم ولا أهـلُ

تـكســـــرت الأســـــيـــــاف يـوم نـــزالـهـم

وفـلـت رمـــــــــاح المـوت وانـقـطـع الـنـبـلُ

تضحية برجال لا بجِمال!

وفي عالم التضحية يتقدم عضد الدولة الملك المشهور بذبح ثلاثة ملوك من الكفار في عيد الأضحى المبارك ويهنئه الشاعر فيقول:

صلِّ ياذا العلا لربك وانحرْ
كلُّ ضدٍّ وشانئٍ لك أبترْ
أنت أعلى من أن تكون أضاحيك
قروماً من الجمال تُعفَّرْ
بل قروماً من الملوك ذوي السؤددِ
تيجانهم أمامك تُنثرْ
كلما خرَّ ساجداً لك رأسٌ
منهُمُ قال سيفك: الله أكبرْ!

وهذا مثل أضحية الأمير خالد القسري لما صعد المنبر يوم عيد الأضحى، فخطب الناس وقال أيها الناس: ضحوا تقبل الله أضحيتكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، يقول ابن القيم:

ولذاك ضحى خالدٌ بالجعدِ
يوم ذبائح القربانِ
إذ قال إبراهيمُ ليس خليلَه
كلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحيةَ كلُّ صاحب سنةٍ
لله درك من أخي قربانِ

(يحبهم ويحبونه)

(يحبهم)!.. هذا عجيب، لأنه غني عنهم، وهم فقراء إليه، ولا يعتمد عليهم، ويعتمدون عليه، ولا يطلب شيئاً منهم، وهم يطلبونه في كل شيء.

وعجيب أن يحبهم وهم مخلوقون، وهو الذي خلق، ومرزوقون وهو الذي رزق.

(ويحبونه).. ليس بعجيب، فقد صورهم وهم أجنة، ثم أخرجهم من بطون أمهاتهم وله المنة، ثم هداهم بالكتاب والسنة.

ويحبونه؛ لأنه أعطاهم القلوب، والأسماع، والأبصار، وسخَّرَ لهم الشمس والقمر والليل والنهار، وحماهم من الأخطار في القفار والبحار.

ولو قال: يحبهم، وسكت لتوهم منهم الجفاء، ولو قال: يحبونه، وسكت، لقيل ليس لهم عنده احتفاء، فلما قال: (**يحبهم ويحبونه**)، تم الوداد والصفاء، وظهر الوفاق والوفاء.

ضحايا الحب.. شعراً

الحب في لغة الهوى حرفانِ ... لكنه يوم النوى لغتانِ

لغة القلوب ولا يفك رموزها ... إلا فؤادٌ دائم الخفقانِ

متوهج بلهيب ذكرى لو هوت ... في البحر ظلَّ البحر في هيجانِ

ومضرج بدم الشهادة معلناً ... أسماء من ذبحوا على القربانِ

ذابت حشاشته ورقَّ خطابه ... فتجاوبت لحنينه العينانِ

بعثت له بالدمع ألفَ رسالةٍ ... مظروفةٍ بكمائم الأجفانِ

فإذا قرأتَ حروفها في ليلةٍ ... أيقنتَ أن الحب شيء ثانِ

الحب ليس قصيدة عربية ... محبوكة الأطراف والأوزانِ

الحب ليس روايةً منسوجةً ... للعرض والإعلام والإعلانِ

الحب ليس تهتكا وتهافتاً ... وتظاهراً بمرارة الحرمانِ

الحب ليس من الدعيّ مقالةً ... منحوتةً بعجائب البلدانِ

كلا وليست خيمةً بدويةً ... مضروبة الأطناب في الصّوانِ

ما كان حباً مسرحيةُ عابثٍ ... أدوارها تصميك بالدورانِ

الحب أن يقف الفؤاد مولَّهاً ... أنفاسه من لاهب النيرانِ

لو سال من جسم المحب دماؤه ... كتبت حروف الحب في الجدرانِ!

ترمي العيونُ إليه وهي نواعسٌ ... سهمين من وصلٍ ومن هجرانِ

فإذا التقى سهم الوصال بقلبه ... هزته ذكر ملاعب الولدانِ

وإذا أتى بالهجر سهمٌ صائبٌ ... فهو الشهيد بساحة الميدانِ

وتثير أنفاس الصباح بروحه ... أشواق مَنْ رحلوا من الأوطانِ

فيظل في بحر التذكر باكياً ... ما عاد من صبرٍ ومن سلوانِ

وإذا الصَّبَا هبت وحلَّ أريجُها ... هجر الكرى ومجالس الإخوانِ

لو مرَّ طيفُ حبيبه بمنامه ... لارتاع وهو يُعَدُّ في الشجعانِ!

أما الضلوع فلو لمست لهيبها ... لظننتها من لاهب النيرانِ!

هجر الرقاد وقد تصدق بالكرى ... فكأنه يشكو إلى الدَّبَرَانِ

خلعت له الجوزاء من أسمالها ... ثوبَ السهاد بليلة الأحزانِ

وكساه حتى الليل بردة عاشقٍ ... تغنيه عن خُلَع وعن قمصانِ

تلقاه مفجوعاً يقلِّب كفه ... متلهفاً كالواله الحيرانِ

فإذا غفا فحبيبه في جفنه ... متمثلاً في صورة الخجلانِ

وإذا صحا فخيال مَنْ يهوى غدا ... في كل ناحيةٍ وكلِّ زمانِ

إن لاح برقٌ قال بسمة عاشقٍ ... أو ناح رعدٌ قال صوت فلانِ!

والصبح طلعة وجهه وجماله ... والغيث يشبه دمع مَنْ يهواني!

ونشيد طير الروض يحيي ميتاً ... من شوقه في سالف الأزمانِ

فهو المعذب بالتجني حاضراً ... وهو المسهّد من بني الإنسانِ

من فرط ما قد راعه يحنو له ... حساده فهو البعيد الداني

يا لائمي في الحب ليتك ذقته ... وسقاك من جفنيه مَنْ أسقاني!

إن كنت تعذلني فجرب ساعةً ... هجر المحبِّ وفرقةَ الخلانِ!

فلسوف تعذرني وتفقه قصتي ... وتبيت أنت مجرَّحَ الأركانِ

أنا ما هويت مربرباً ألحاظه ... سِحْرٌ وفوق لماته خالانِ

ورموشه كسيوف هندٍ أُشرعت ... ضرباتُها تهدي الردى لجنانِ

وعلى الجبين من الجمال مهابةٌ ... وحلاوةٌ من منطق فتَّانِ

فالنور من تلك الثنايا ذائبٌ ... والشهد ترشف شمعَه شفتانِ

وكلامه سحرٌ حلالٌ مترفٌ ... يُنسيك عذب معازف العيدانِ

كالخمر إلا أنه من سكره ... لا يصحُ سامعه من الإدمانِ!

سكرٌ من النغم البريء وآخرٌ ... من دفء حبٍّ إنه سُكرانِ

قالوا الثريا علقت بجبينه ... وتوضأت بضيائها كفَّانِ

ما روضةٌ فيحاءُ باكرها الندى ... والغيثُ مسَّاها على إبَّانِ

والمسك في أعطاف كل خميلةٍ ... ما شئتَ من شيحٍ ومن ريحانِ

والطَلُّ في أردانها متماوجٌ ... لله من طلٍّ ومن أردانِ

يوماً بأذكى من تضوُّعِ عطرِه ... كلاً ولا في الحسن يستويانِ

لم يسبني هذا ولم أُهدي له ... حبي ولم أرْهَنْ عليه جناني

كلا وما أحللته من مهجتي ... روضاً وما أسكنته بستاني

عهْدُ الزيانب كلُّه أُنسيتُه ... وذكرت كل العمر ما أنساني!

حبي لأعظم مَنْ يُحَبُّ وإنه ... أهل الثنا والبر والإحسانِ

حبي لمن منح الجميل وزادني ... شرفاً وبصَّرني الهدى وحباني

حبي لمالك مهجتي ولخالقي ... ولرازقي هو صاحب السبحانِ

شرفي بأني عبده يا فرحتي ... والفخر لي بعبادة الرحمنِ

وعليه سار الفائزون جميعهم ... متوجهين إلى عظيم الشانِ

ولأجله بذلوا النفوس وعلقت ... تلك الجماجم والْتقى الجمعانِ
سالت على حد السيوف دماؤهم ... وسعوا إلى التنكيل في إذعانِ
فمجندلٌ ومعفّرٌ ومضرَّجٌ ... ومضمَّخٌ دامي الملابس قاني
ومقطَّعُ الأوصالِ يُسحب جسمه ... فوق اللظى، يُشوى على الصّوانِ
ومبعثَرُ الأشلاء لو جمَّعتَه ... ألفيتَه بحواصلِ الغربانِ!
قُتلوا لأجل مُحبِّهم وحبيبهم ... وسواهمو لمحبة النسوانِ!
فاعرف (ضحايا الحب) وافعل فعلهم ... إن كان ذاك الفعل في إمكانِ
فإذا جبنت من القتال وخفت من ... وهج السيوف وزحمة الشجعانِ
وخشيت من وخز الرماح ولم تطق ... ضرب الردى من فارسٍ طعَّانِ
وبخلت بالنفس النفيسة موقناً ... أن العلا حُرِمَت على الكسلانِ
فاهجر فراشك والمنام مهلِّلاً ... يوم الأذان يضج في الآذانِ
واحضر إلى الصف المقدم ضارعاً ... متملقاً للواحد الديَّانِ
واسكب دموعاً لا تصان لموقفٍ ... عند العظيم مصوِّرِ الأكوانِ
واهتف بصوتٍ خافتٍ متخشِّعٍ ... متصدِّعٍ لعجائب القرآنِ
ومعفِّراً منك الجبين ومعلناً ... نَدَماً بنطقٍ مقصِّرٍ خجلانِ
فإذا أبيتَ ولم تطق هذا ولم ... تقدر عليه لسطوة الشيطانِ
فتمنَّ موتاً عاجلاً وارحلْ فما ... أقسى البقاءَ لمفلسٍ خسرانِ!